argumentative strategies in a speech of the prophets in the quran

الاستراتيجيات الحجاجية في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم

ابتسام صغيور

جامعة المسيلة ، الجزائر

Ibtissam.hadj@gmail.com

تاريخ الارسال : 2018-05-22 **تاريخ النشر:** 2018-06-01

Abstract:

The summary :

We trye in this study to know argumentative strategies in a speech of the prophets in the quran and their impacte on the success of advocacy and persuasion through practical study in the sura of Al-Araf this last one which mentioned all of those numbers of prophets pbut all together in one surah started with prophet Adam than Noah, Salih, Hud, Lot, Shuayb, Moses down to our prophet Muhammad peace be upon him .

And we have been shown through the context of this surah some images and how prophets face their own people with their own arguments among them which every party adopt his opinion and how to defend on it, and also we have been shown us how to the strong focus is in this surah from those people because they are faces speech of mind with their paralogism , sometimes they deny sometimes they run away and tell a lot of accusations and follow some twisted methods unfounded to face the toughness arguments which leaves no place for doubt and the Qur'an shows up all of that

Key words :

argumentative strategies , persuasion , the prophets , the Qur'an

الملخص :

نحاول في هذه الدّراسة الكشف عن الاستراتيجيات الحجاجية في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم وأثرها في نجاح الدعوة وتحقيق الإقناع من خلال دراسة تطبيقيّة في سورة الأعراف، هذه الأخيرة التي ورد فيها ذِكر هذا العدد من الأنبياء مجتمعين في سورة واحدة بداية من آدم عليه السّلام ثم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وصولا إلى نبيِّنا الكريم صلى الله عليه وسلّم.

وقد تبيّن لنا من خلال السّياق والجوُّ العام للسورة صُوَر وكيفيّات مواجهة هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم والمحاجَجَات التي دَارَت بينهم والاستراتيجيّات التي تبنّاها كلٌّ طرف في الدّفاع عن موقفه، كما تَبيّن لنا التّركيز الشّديد في السّورة على مواقف هؤلاء الأقوام لأنّهم واجهوا خِطاب العقل والمنطق من قِبَل الأنبياء بالمغالطات والإنكار تارةً والتّهرُّب وَكَيْل الاتّهامات تارة أخرى واتّباع أساليب مُلتوِية لا أساس لها لمواجهة الحُجج الدّامغة التي لا تترك مجالا للشّكّ وقد فضح القرآن الكريم كل ذلك .

الكلمات المفتاحية :

الاستراتيجيات الحجاجية ، الإقناع ، الأنبياء ، القرآن الكريم

مقدمة :

دارت حول موضوع حجاج الأنبياء مع أقوامهم العديد من قَصص القرآن سواء منها ما جاء مفصّلًا ومنها ما اكتُفي بالإشارة إليه وذلك في العديد من السُّوَر بغرض الاعتبار والموعظة بما حلّ بالأُمم السّابقة وذكر تاريخها تسلية للرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم وتعليما له ولأمّته، وقد تبيّن لنا من خلال دراستنا لهذا الجزء في سُورة الأعراف ما وقع بين الأنبياء عليهم السّلام وبين أقوامهم من مُحاججات ومناقشات ومحاورات تتعلق بالتّوحيد والعقيدة دعوةً وترسيخا وتصحيحا لأنّ الانحراف عن الفِطرة السّليمة التي تقتضي أن الله واحد ويجب إفراده وحده بالعبادة، تتنافى والمعتقدات الفاسدة التي تجعل له شُركاء من خلقه ظنًّا منهم أن من يعبدونهم هم من يتصرّفون في الكون ويتحكّمون في مخلوقاته، ولذلك أرسل الله تعالى رُسُله مبشّرين ومنذرين ليُبيِّنوا للبشريّة تعاليم عقيدتها الفطريّة ويذكّروهم بها،كي لا يَحِيدُوا عنها وذلك هو الهدف الذي أرسل الله تعالى من أجله الأنبياء والرُّسل الذين استغلوا للوصول إليه كلّ الإمكانات الحجاجيّة ووسائل الإقناع والحوار الهادف، لكن تقبُّل تلك الأمم لرسالات الرّسل والأنبياء اختلف اختلافا مُتباينا فمنهم من استجابوا للهُدى ومنهم من تفنّنُوا في خَلْق الأسئلة والمعارضة والجدل العقيم طغيانا وكفرا، وما من نبيٍّ إلاّ وجَرَتْ بينه وبين قومه محاورات ومحاججات انتهت في الغالب بمعجزات داحضة ويقين في نفوس هؤلاء الجاحدين، " فالرّسل الكرام لا يدعون البشريّة لأمْر شاذٍ؛ إنّما يدعونها إلى الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله وإلى الحقيقة المركوزة في ضمير هذا الوجود ... وهي ذاتها الحقيقة المركوزة في فطرة البشر، والتي تهتف بها فطرتهم حين لا تلوي بها الشهوات ولا يقودها الشيطان بعيدا عن حقيقتها الأصلية ... وهذه هي اللمسة المستفادة من تتابع السياق القرآني في [هذه] السورة على النحو الذي تتتابع به " [1] . وهذا ما نبّهَ إليه القرآن الكريم وبيّنه خاصة في سورة الأعراف التي تُعد السّورة الوحيدة التي جاء فيها ذكر قصص كل هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجتمعين بداية من آدم عليه السلام ووصولا إلى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم .

وقد سِيقَت كلّ تلك القَصص " لتحقيق الإنذار الذي ترمي إليه السورة لذا فإنها جاءت بعد الحديث عن الكتاب الذي فصله الله على علم وذكر خلق السماوات والارض والاستواء على العرش وتسخير الملك ومظاهر القدرة ومشاهد يوم القيامة، ثم الأمر لعباده بدعائه سبحانه تضرعا وخفية"[2] ومنه فإنّ الهدف كان تصوير طبيعة العقيدة وطرق التّبليغ بالإضافة إلى طريقة استقبال القوم لهذه الدّعوة ومواجهة هذه الرّسالة، كما حرص السّياق في هذه القَصص على إبرازا حقيقة صدق مشاعر الرسول في أداء رسالته وفي النُّصح وتَحقُّق النّذير بعد الإعذار.

ومما جاء في حجاج الأنبياء مع أقوامهم في سورة الأعراف:

1 – حجاج نوح عليه السّلام وقومه :

1 – سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مج : (5) ،ج : (24) ، دار الشروق ، ط 32 ، القاهرة ، بيروت ، 1423 ه – 2003 م ، ص : 1307 .

2 - عبد الصمد عبد الله محمد ، خطاب الأنبياء في القرآن الكريم خصائصه التركيبية و صوره البيانية ، أطروحة دكتوراه ، كلية اللغة العربية ، فرع الأدب ، المملكة العربية السعودية ، 1415 ه – 1995 م ، ص : 12 .

لقد كانت بداية القَصص في هذه السّورة الكريمة مع سيّدنا نوح عليه السّلام، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ * ﴾ [3]

من خلال الآيات يتجلى لنا عرض سيّدنا نوح عليه السّلام عرضا سليما متناسقا واضح الألفاظ دقيق المعاني ومحدد ومختصر وهذه ميزات الحجاج الناجح " فلكي يؤتي أي حجاج ثماره يجب أن يصاغ صياغة سليمة واضحة الألفاظ ودقيقة المعاني ومحدّدة الدّلالات لأن الكلمات الفَضفَاضَة والتّعابير المطّاطَة فضلا عن كونها تُنمّ عن فوضى فكرية فإنّها كثيرا ما تلقي بالناس في متاهات لا صِلَة لها بالواقع ولا علاقة لها بالحقيقة، وبالتالي فإنّها لا تعين على فهم المقاصد ولا تساعد على التقريب بين وجهات النظر ولا على تكوين عقلية تحليلية قادرة على الاستيعاب بارعة في النقد حاذقة في الاستنتاج، فكم من معارك كلامية استنفذت الطاقات و استغرقت الأوقات، وكانت نتيجتها التّباعد بدل التّقارب وضيَاع الحقيقة بَدَل الكشْف عنها والعثور عليها كلّ ذلك بسبب عدم الدّقة والتّعبير وعدم تحديد مدلولات الكلمات وعدم الاتفاق على مضامين محددة " [4] وقد تميّزت دعوةُ نوحٍ عليه السّلام لقومه بالاستراتيجية الآتية :

1 – الدّعوة إلى عبادة الله تعالى وحده ونبذ الشّركِ .

2 – الدّعوة إلى مكارم الأخلاق بشَفقة الخائف على قومه النّاصح لهم

3 – التّحذير من غضب الله تعالى عليهم، وعذابه إيّاهم إذا لَمْ يستجيبوا للدّعوة

4 – الرّد على من اتّهمه بالضّلال والتّأكيد على أنه رسول من ربّ العالمين يبلّغ رسالتَه وينصح قومه، وأنّه مكلّف بالإنذار والدّعوة والتبليغ لا غير، يقول (ابن كثير) : " وهذا شأن الرّسول أن يكون مبلّغا فصيحا ناصِحا عالما بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصِّفات " [5]

5 – الاستِغراب والتّعجب من ردّة فعل قومه وهو النّاصح المنذِر، المبّشِر لهم برحمةٍ تغْشاهم من الله تعالى وفضلٍ منه لُطفا وإحسانا بهم .

لقد كان " الرّفق و اللّين " هو السِّمَة البَارزة في دعوة نوح عليه السلام وفي ردّه على الشّبُهات التي طَالَت دعوتَه في إطارِ تواصُل حِجاجِيٍّ مَبْنِيّ على حوارٍ تحْفِيزيّ مُشجّع وتبَادلٍ للرّأي والحُجَج عمل فيه نوح عليه السّلام على استِمالتِهم ونصحِهم مستغلا أواصِر القُربى التي تجمَعه بهم والتي تجعل من الطّبيعي جدا أن يُظهِر حِرصه الشّديد على ما ينفعهم، وربّما جاءَت هذه الملاينةُ وظَهَر هذا الحِرص عند نوحٍ وبقِيّة الأنبيّاء عليهم السّلام الذين ذُكِروا في السّورة تأكِيدًا على السّياق العام "ادعُوه خوفاً وطَمَعاً إنّ رحْمة قريبٌ من المحسنينَ " لذَا فإنّه – عليه السّلام – أكّد خوفَه من مغَبّة عدَم الاستِجابَة لدَعوَته وتماديهم في الشّرك والضّلال .

---

[3] - سورة الأعراف ، الآيات : من 59 إلى 64 .

[4] - محمد التومي ، الجدل في القرآن الكريم ، فعاليته في بناء العقلية الإسلامية ، شركة الشهاب ، (د . ط) ، الجزائر ، (د . ت) ، ص : 54 ، 55

[5] - ابن كثير الدمشقي الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ، تفسير القرآن العظيم ، وضح حواشيه و علق عليه : محمد حسين شمس الدين ، ج : 3 ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، بيروت – لبنان ، 1419 ه – 1998 م ، ص : 388 .

أمّا موْقف قوْم (نوح) فما كان منهم بعد أن دعاهم إلى التّوحيد ومكارم الأخْلاق إلاّ أن اتّهمُوه بالضّلاَلة، وما زادَهم حرصُه عليهم ومُلاينَتُه وترغِيبُه إيّاهم في طاعة الله وترهيبُه لهم من بطْشِه وشدّة عذابه و الإنذَار بما أمَره الله تعالى إلاّ تكذِيبا بلْ وإمْعانا في تكذيبه ومخالفته والتّعجب مِن أن يُرسل الله إليهم بَشَرا رسُولا وأن يتزّل على أحدٍ من خلقِه وَحيًا، فما آمن معه إلاّ قليل كما ورد ذلك في مواضع عديدة في القرآن الكريم.وإن أورد السّياق في سورة الأعراف قصّة نوحٍ عليه السّلام بشيء من عدم التّفصيل على خِلاف ما ورَد في غيرها من السُّوَر فذلك لأنّ " قصّة نوح هنا لا تُعنى بالتّفاصيل إلاّ بما يكشِف عن موقف القوم من الرّسالة، فمِحورها يدور حول دعوة نوح ومطلبه لهم، ورفض الملإ من قومه لهذه الدّعوة وما تولّد عن ذلك من إلحاحِ نوحٍ عليهم وإصرارهم على الرّفض والتّكذيب حتى يُفاجَأ بإنجَائِه والذين معه في الفُلك وإغراق المكذّبين " [6]

– لقد عمِل (نوح عليه السّلام) على توظيفِ أسلُوب **الاستِمالة العاطفيّة** واللّطف و**النّصح تحبّباً وتقرُّبا** والتّرقيق لاستِجلابِ هدايةِ قومِه مع **سَلاسةِ الأُسلوب ووُضوح العبارة ودقّة المعنى** زيادَةً على استِغلالِه لرَوابِط الدّم والقُربى معهم و**التّخويف** من عذاب الله، غير أنّ ذلك لم يُجدِ نفعًا معهم خاصةً الملأُ منهم وهم أشراف القوم وقادتهم الذين انْبَرَوا لمجادلتِه عليه السّلام إذ أجابُوه بقولهم " إنّا لنَراك في ضلال مبين "، وذلك خوفا على مطامعهم التي أغرقتهم في حياة الجاه والسّيادة والاستبداد وإشباع رغباتهم يقول (الطّاهر بن عاشور) : "فصّلت جملة " قال " على طريقة الفصل في المحاورات، واقْتَرن جوابُهم بحرف التّأكيد للدّلالة على أنّهم حقّقوا و أكّدوا اعتِقادهم أنّ نوحا منغَمسٌ في الضّلالة " [7] مقتَنعين أو مُقنِعي أنفُسهم بأنّهم على حقّ وهم في ضَلالهم يعمَهون وحجّتهم في ذلك هي " شُبهة المخالفة " لأنّ نوحا عليه السّلام قد خالفهم في صُلب ما يعتَقدونه، فاتّهمُوه بالضّلال وهو " غاية الضلال والبعد عن طريق الحق " في نظرهم لأنّ الحقّ هو ما هُم عليه ونوح في نظرهم في ضلالٍ مبين للشبهات الآتية :

1 – نَفْيُ الأُلوهية عن آلهتهم

2 – إثبَاتها لله وحد، وهي من المحال لأنّ فيها قمّة المخالفة لما أُلِفوه من تعدّد للآلهة

3 – توعّدهم بالعذاب وهو أمر مستحيل في نظرهم فآلهتهم راضية عنهم كما يظنون

4 – إثباتُه لحقيقة البعث و الجزاء

5 – استدلالهم أنّه بشرٌ منهم غايتُه التّفضّل عليهم لا غير وهذه الشّبه في الحقيقة هي استدلال عليهم لا لهم " فبفضح شبهتهم فيه وردّها بأنهم أحقّاء بأن يكون ما جَعلوه موجَب استحالة هو [في الأصل] موجَب القبول والإيمان إذِ الشّأن أن ينظروا في الذّكر الذي جاءهم من ربهم لا

[6] - محمود السيد حسن مصطفى ، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ط 1 ، الإسكندرية ، 1981 م ، ص : 169 – 170 .

[7] - محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير و التنوير ،ج : 9 ، 8 ، الدار التونسية للنشر ، (د. ط) ، تونس ، 1984 م ،ص : 190.

أن يسرعوا إلى تكذيب من حمله، وأن يعلموا أن كون المذكِّر رجُلا منهم أقرب إلى التّعقل من كون مذكّرِهم من جنس آخر، فكان هذا الكلام من جوامع الكلم في إبطال دعوى الخصم والاستدلال لصدق دعوى المجادِل وهو يتنزّل منزلة سنَد المنْع في علم الجدل "[8].

و بذا فإنّ حجاج(نوح عليه السّلام) معهم قد فاقهم لأنّه أخذ بالأدلّة التّالية :

1 – لم يَشُب دعوته أيّا من مظاهر اللّفّ أو الدّوران وإنّما التزم بالموضوع الأساس وهو عبادة الله وحده وأن لا معبود سواه أمّا قومه فلم يلتزموا بمضمون الدّعوى و لم يقابلوا الحجّة بالحجّة ولا اللّطف بما يماثله وإنّما انشغلوا بغيرها وصاروا يَنفُون الرّسالة عنه لأنّه بشر منهم وما يكون له هذا، بالإضافة إلى شبهات فارِغة أخرى وَرَدت في غير سورة الأعراف منها أنّ الذين استجابوا له هم أراذل الناس وضعفاؤهم الذين لا يملكون مَالا ولا نَسَبًا ولا نفوذا ولا قوّة وغير ذلك من الشّبهات .

2 – بالإضافة لاستِخدامه لأسلوب " الاستمالة العاطفية " في حجاجه مع قومه فإنّه استخدم أيضا طريقة "الأخذ بالخصم من خلال كلامه " وذلك بأخذ حجّة الخصم وردّها عليه وكذا " أسلوب المجارات حين اعترضوا عليه بأنّه بشرٌ منهم، ونفي ما رموه به. في حين كان خصومه يستخدمون أدلة و شبهات لا منبت لها ، و لا تزيد عن كونها جدلا عقيما لا يُفضي إلى شيء إذ "نلحظ أنّ موقف قوم نوح تجاه الدّعوة في هذه السورة تتلخص في تسجيلهم الضلال على نوح عليه السّلام و تكذيبهم إياه بشبهة منافاة البشرية للرسالة، وقد طوى السّياق هذا ذكر هذه الشبهة مكتفيا بالردّ عليه . " [9] وما كان جزاؤهم بعد أن يئس منهم وأوحى الله إليه لن يؤمن معه إلا من قد آمن و أنه لا يرجى منهم تقي إلا أن أهلكوا بالطوفان، ونجّى الله نوحا والذين آمنوا معه: " وهذه سنّة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين والظّفر والغَلَبة لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجّى نوحا وأصحابه المؤمنين وقال (مالك عن زيد بن أسلم) : كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل و الجبل . " [10]

2 – حجاج هود مع قومه :

بعد قصّة نوحٍ عليه السّلام يمضي السّياق لِيَعرض قصّة (هود عليه السّلام) مع قومه، قال تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ

[8] - ينظر : السابق نفسه ، ص : 388 .

[9] - خطاب الأنبياء في القرآن الكريم ، ص : 101 .

[10] - تفسير القرآن العظيم ، ج 3 ، ص : 388 .

وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ * ﴾ [11]

لقد استغلّ (هود عليه السّلام) هو الآخر في دعوته لقومه **أساليب الاستمالة العاطفية والرّفق و اللّين** من خلال وشائج القُربى التي تربطه هو أيضا بقومه والتي تقْتَضي حرصه الشّديد على ما ينفعهم وخوفه الأكيد مما يضرّهم، وقد ركّز في دعوته على الاستراتيجيات الحجاجية الآتية :

1 – الاستمالة العاطفية بالتّذكير بوشائج القربى واستعمال اللّطف واللّين مع إبراز الحرص والخوف على قومه .

2 – نفيُ ما اتّهموه به من سفاهة وتأكيده على أنه رسول منهم من ربّ العالمين، غايتُه إبلاغ الرّسالة والنّصح بكلّ صدق وأمانة، واستنكارِه من تعجّبهم من أنّه رسول بشر مثلهم كما حدث مع (نوح عليه السّلام) وأنه حَريٌّ بهم أن يحمدوا الله على هذه النّعمة لا أن يتعجّبوا منها، ثمّ توبيخُه إياهم على مجادلتهم له في أسماء سموها هم وآباؤهم وفيما لا يعلمون .

3 – التّذكير بمصارع الأمم الخالية واستخلاف الله لهم بعد قوم نوح، وقد ذَكر قوم نوح على وجه الخصوص الذين أخذهم الله بعذابه فلم يبق منهم أحدا وأخْذِهم بالطّوفان بعد تكذيبهم واستكبارهم وذلك لأخذ الدّروس و العِبر لأنّهم جاءوا من بعدهم.

4 – استدلاله بحجج ملموسة بالتّذكير بنعم الله تعالى وآلائه عليهم في أجسامهم وما حولهم فقد زادهم الله بسْطَة في الخلق والرّزق والبدن من أجل أن تكون كل تلك النّعم باعِثا لشكر الله تعالى والحِرص على عبادته وحده من أجل النّجاح والفلاح، فالكلام في هذا السياق جاء على " طريقة القياس من الاستدلال بالجزئي على إثبات حكم كلي، لأنّه ذكّرهم بنعمة واضحة وهي كونهم خلفاء في الأرض ونِعَمٍ مُجْملة وهي زيادة بسطتهم ثم ذكّرهم ببقية النّعم بلفظ العموم وهو الجمع المضاف ."[12]

5 – استخدام أسلوب نفي الحجّة والتّحذير من الشّرك بالله بعد أن اتّخذوا من دونه آلهة وسَمّوْها ما لهم بها من سلطان "والسلطان : الحجّة التي يصدق بها المخالف، سمّيت سلطانا لأنها تتسلط على نفس المعارض وتقنعه ونفي أن تكون الحجّة متزّلة من الله لأن شأن الحجة من مثل هذا أن يكون مخبرا بها من جانب الله تعالى ." [13]

6 – التّهديد بالإهلاك والتّخويف من عذاب الله وبطشه الشّديد بمن يشرك به، بعد أن كذّبوا وتوَلّوْا وأنّه واقع بهم لا محالة ما داموا على ما هم فيه إلاّ من تاب وآمن .

ما كان من قوم (هود " عليه السّلام ") – وهم قوم عرفوا بشدّة بأسِهم و قوّتهم – بعد أن واجههم بكل تلك الحجج والاستدلالات إلا الاستزادة في الجُحود بنِعم الله تعالى عليهم ونكرانها، ومجدّدا انْبرى لمجادلته وتكذيبه سادة القوم وكبراؤُهم إذ لطالما كانت دعوة التّوحيد هي

[11] - سورة الأعراف ، الآيات : من 65 ، إلى 72 .
[12] - التحرير و التنوير ، ج 8 ، ص : 207 .
[13] - نفسه ، ص : 213 .

عقدة ذوي السّلطان والجاه فكذّبوه وتجاوزوا الحد في تكذيبه واتّهموه بالسّفاهة من غير تَحَرُّج ولا حياء وبلا تدبّر أو دليل فاستدلوا وحاججوه بأن بنَوا موقفهم الرافض على شبُهات باهتة لا تنمّ سوى عن سخافة واستكبار ومن أبرز ما جادلوا به هود عليه السّلام :

1 – أنّه في سفاهة وهي سخافة العقل وأنه من الكاذبين لأنّه بشر منهم .

2 – استغرابهم نفيُ الألوهيّة عن آلهتهم وترك ما كان يعبد آباؤهم وعبادة الله وحده وهم عُبّاد العادة والتّقليد.

3 – استعجال العذاب في محاولة منهم لتعجيز نبيّهم من جهة واستثقالا لنُصحه واستهزاءا بنذيره من ناحية ثانية، وذلك فِرارا من مواجهة الحقّ بعد أن أفحمهم عليه السّلام بحججه الدّامغة.

لقد قابلت (عاد) حرص (هود) عليهم ولطفه واستمالته لهم بغلظة شديدة وفظاظة ما بعدها فظاظة واستهزاء ومكابرة عنيدة بل وأمعنوا في ذلك بأن طلبوا أن يأتيهم العذاب قصدا منهم لإظهار عجزه عن ذلك فلا يسعُه إلا الاعتراف بكذبه –حسب ظنهم – لأنّه من مُختَلقاتِه لا من الله تعالى فالآلهة الحقيقيّة هي التي يعبدونها .

ما كان من هود في نهاية الأمر إلاّ أن أخبرهم بثبوت وقوع غضب الله عليهم وتحقيقه إذا لم يرجعوا عن الشّرك بعد أن بلّغهم الحجّة وأنكر عليهم أن يجادلوا في شأن أصنامهم، فعدمُ رجوعِهم بعد كلّ ذلك هو دليل على استقرار الخُبث والعَنَتِ في قلوبهم. وفعلا فقد حصل ما كانوا يستعجلون وأهلكهُم الله تعالى بأن أرسل عليهم الرّيح العقيم و نجّى الله هودا والذين آمنوا معه .

3 – حجاج صالح " عليه السّلام " مع قومه :

تمادت ثمود في الجُحود بأنعُم الله تعالى عليهم بعد أن مكّنهم في الأرض و أَقدَرهم على اتّخاذ البُيوت والقصور الفاخرة في الجبال، وجاءهم صالح عليه السلام بالآيات البيّنات والحُجج الدّامغات. قال تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * ﴾[14]لقد كانت دعوة صالح عليه السّلام لقومه بالأسلوب وبالوسيلة نفسهما اللّذين دعا بهما كل من نوح وهود عليهما السّلام قومهما، فقد دعا إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به وهو الأمر الموحّد في دعوة كلّ الرّسُل عليهم الصلاة والسّلام لاستِحقَاق الله تعالى وحده بالعبادة وبصفات الكمال المطلَق، وبَيِّنة هذا الأمر التي جاء بها النّبي صالح " عليه السّلام " هي (النّاقة) فقد جعلها الله سبحانه وتعالى حجّة دالّة على صدق نبوّة صالح وصِدق دعوته. والفَرق في ذكر دعوة نوح وهود بالمقارنة مع صالح عليهم السلام هو أنّه في ذكر الأوّل والثّاني حَرَص السّياق في السّورة على تبيين التّفاصيل المتعلّقة بكشف موقف القوم من الرّسالة من عنادٍ و تكبرٍ وذِكْرِ عاقبة ذلك، أمّا بالنّسبة لصالح عليه السّلام فبالإضافة إلى

[14] - سورة الأعراف ، الآيتان : 73 ، 74 .

ما سبق حَرَص السّياق على التّذكير بالمعجزة التي طلبها قومه للتّصديق وكيفيّة مُقابلتها والتّعامل معها ثمّ عاقبةُ من كَفَر بها بعد ذلك،كما سنرى بعد قليل .

وأما عرض سيّدنا صالح عليه السّلام فإنّه قام على الاستراتيجيات الآتية:

1 – الدّعوة إلى عبادة الله تعالى وحده وعدم إشراكِه بالعبوديّة .

2 – المواجهة بالحجّة، وذلك عبر الإتيان ببيّنة " النّاقة " – بعد أن طلبها قومه منه واقترحوا عليه بأن يخرجها لهم من صخرة صمّاء من اختيارهم هم – وأمْرُه لقومه بأن يَدَعوها تأكل في أرض الله، ونهاهم ناصحا عن التّعرُّض لها بالإساءة حتى لا يمسّهم العذاب جزاء ذلك .

3 – التّذكير بنعم الله تعالى والتي منها استخلافهم في الأرض من بعد عاد للتّدبُّر والتّذكُّر في مصارع الغابرين والشّكر على نعمة الاستخلاف بعدهم، وتذكِيرُهم بأنعُمٍ أخرى بأن بَوّأَ الله لهم الأرض والجبال وجعلهم خلفاء متمكنين في الأرض .

4 – التّحذير من الإفساد في الأرض بالمعصية والتّذكير بعاقبة الفساد ترغيبا وترهيبا لهم .

فبالإضافة إلى استخدامه – ككل الرّسل – لأسلوب **النّصح والاستمالة العاطفية** وأُسلُوبَيْ **التّرغيب والترهيب** والتّذكير بمصارع الأمم السالفة استخدم أيضا أُسلُوبيَ : **" التّفريع "** وهو تفريع الأعم على الأخص لأنّه أمرهم بذكر نعمتين ثم أمرهم بذكر جميع النعم التي يحصونها فكان هذا بمنزلة التذييل .

وأسلوب : **" المقابلة بالحجّة أو البيّنة "** التي تمثلت في " النّاقة " التي طلبها قومه أن يخرجها لهم من الصخرة، وقد جعل الله تعالى سلامة تلك " النّاقة " علامة على سلامتهم من العذاب .

وكلّها استراتيجيات حجاجيّة وأساليب إقناعيّة في غاية التّأثير بفهم أصحاب المنطق والتفكير، وبذلك فإنّه قد أقام عليهم الحجّة بم لا يترك مجالا للشّك . ومع ذلك فجواب قومِه كان كما قال تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ * ﴾ [15] لم تتّهم ثمود صالحا بالضّلال أو السّفاهة كما فعل قوم نوح وعاد وإنّما لجئوا إلى أسلوب أحقر من ذلك باختبار الذين اتّبعوه في دينهم ومحاولة إلقاء الشكّ في نفوسِهم على سبيل المحاوَرة قاصدين بذلك إفساد دعوة صالح عليه السّلام وتَأليب أتباعه عليه . وما دعاهم لذلك – في الحقيقة – هو استكبارهم الذي صرفهم عن طاعة نبيّهم واحتقارهم للمؤمنين المستضعفين الذين اتّبعوه وكفرُهم بل تصلّبهم في الكفر من خلال قولهم "إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ " بعد أن عجزوا على المحاججة والاستدلال، ودليل التّمادي والتبجّح بالكفر هو (عَقرُهم الناقة) زيادة في النّكاية بصالح عليه السّلام وإغاظَة له ومن آمن معه بعد أن كانت

[15] - سورة الأعراف ، الآيات ، من : 75 ، حتى : 79 .

هذه الأخيرة (حجّة وبيّنة) واضحة جليّة أقامها نبي الله عليهم بل وسَعَوْا لإزالة هذه الحجّة التي أرهقتهم وضايقتهم و لم يجِدُوا معها ما يُمارون فيه، يقول (الطّاهر بن عاشور) : " ومقصدهم من نيّتهم إهلاك النّاقة أن يُزيلوا آية صالح – عليه السّلام – لئلاّ يزيد عدد المؤمنين به لأنّ مشاهدة آية نبوّته سالمة بينهم تُثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه، والاستِئناس لذلك بسُكوت كبرائهم وتقريرهم لها على مرعاها وشربها، ولأن في اعتدائهم عليها إيذانا منهم بتحفيزهم للإضرار بصالح – عليه السّلام – و بمن آمن به بعد ذلك و لِيُروا صالحا – عليه السّلام – أنهم مستخفون بوعيده إذ قال لهم : (ولا تمسوها بسوء فياخذكم عذاب أليم)"[16]وبإصرارهم على عَقْر النّاقة وقتلهم لها استجلَبُوا لأنفسهم العذاب فزُلزلت الأرض من تحت أقدامهم ودَوَّت السّماء دويّا فصُعِقوا وأُهلِكُوا، وتُبيّن نهاية القصّة في الآيات أَسَف صالح عليهم وحزنه على ما فاتهم من الإيمان مُعلِنا أنّه لم يُقصّر في مهمّته بل كان لهم نِعم النّاصح المرشد المبلِّغ الأمين غير أنّ عنادهم وتكبرهم رغم ما رأوه من آيات وما عاشوا فيه من نِعم – هو الذي أدّى بهم إلى الهلاك كما يجوز أن يكون تَوَلِّي صالح عليهم ليس حُزنا وأسَفا بل يجوز أن يكون عن غضب وتبرُّئ منهم لأنّ التّولي كما يقول (الطّاهر بن عاشور) " هو الانصراف عن فِراق وغضب، ويُطلَق مجازا على عدم الاكتِراث بالشّيء وهو في الآية يحتمل أن يكون حقيقة أي أنّه فارق ديار قومه حين عَلِم أنّ العذاب نازل بهم ويُحتمل أن يكون مجازا أي أنّه أعرض عن النّظر بعد إصابتها بالصّاعقة أو أعرض عن الحزن عليهم . فَعَلى الوجه الأوّل يكون قولُه (يا قومِ لقد أبلغتكم) مُستعمَلا في التّوبيخ لهم والتّسجيل عليهم، وعلى الوجه الثّاني يكون مُستعمَلا في التّحسر أو في التبرُّؤ منهم"[17]

4 – حجاج لوط مع قومه :

اتّسم حجاج لوط " عليه السّلام " مع قومه في سورة الأعراف بالمنطقية والدعوة إلى استخدام العقل؛ إذ يتعرّض السّياق لهذه القصّة مباشرةً بإبداء لوط عليه السّلام استنكاره الشّديد وتوبيخه الكبير لقومه إزّاء ما يفعلونه من فواحش كنّاها القرآن الكريم و لم يذكرها لفضاعتها وعدم أخلاقيتها.

لقد استنكر لوط عليه السّلام فعل قومه المَهُول الذي يُنافي المنطق والعقل وكذلك الفِطرة السّليمة وما عُرفوا به من مساوِئ الأخلاق وهو فعل لم يسبقهم إليه أحد من العالمين، وفي بدايته بإنكارِ ما هم عليه من فواحش قبل دعوتهم إلى الإيمان – على خِلاف من ذُكر قبله من الرّسُل – دلالة على فضَاعة ما يفعلونه إلى جانب الكفر بالله ، قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * ﴾[18]لقد كانوا يأتُون الفواحش في أحسّ مظاهرها بل والإسراف في ذلك بصنيع لم يعرفه بشرٌ قبلهم ومن دون عذر واضح، فلا دليل لهم عن ترويج شناعة فعلهم ولا مجال للمجادلة في ذلك والدّفاع عنه لذلك بادَرُوا إلى التّآمر لإخراج لوطٍ و من معه و نَفْيِهم خارج قريتهم للاستراحة منهم. والغريب في الأمر أنهم ردّوا على خطاب العقل والمنطق متضايقين متضجّرين بقولهم : ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

[16] - التحرير و التنوير ، ج 8 ، ص : 225

[17] - السابق نفسه ، ص : 228 .

[18] - سورة الأعراف ، الآيات : من 80 ، حتى 84 .

يَتَطَهَّرُونَ ﴾ في إصرار صريح على بَهيميّتِهم بل حاشى للبهيمة من الأنعام أن تفعل ذلك وتُخالف فطرتها التي جَبَلها الله عليها. لقد كانوا يأتون الرّجال من دون النّساء في فعل شنيع مَقيتٍ فضيع بغيض منافي تماما للفطرة البشرية ولهذا استدلّ معهم لوطٌ بالعقل والمنطق، فلا يخفى ما لهذا الفعل من " خطورة على الحياة الاجتماعية، لما فيه من إزهاق لمظهر الرجولة وجوهرها ولما يترتب على تفشيه وانتشاره من الارْتِكاسِ في حَمأة الخنوثة وإماتة لمقتضى الفطرة التي بين الزّوجين والذي تدعوا إليه الشّهوة ويُقصد به النّسل، وناهيك بفظاعته، أنّه تهديد للجنس البشري بالوَبال و النّكال والانقراض . " [19]لقد كان هذا الفعل أبشع من كُفرهم بالله لأنّهم ابتدعوا فاحشة مهددِّة لا عهد للبشريّة بها في تاريخها كله بعد أن تمكّن منهم الإسراف في الشّهوات المعتادة وبَلَغوا أقصاه وسئموا منها، فاشتهوا شهوة غريبة في غير ما وُضعت له وتتعدى على فطرة النّوع وتُنافي العقل والمنطق. فكانت عاقبتُهم أشدّ ممّا اقترفوه إذ أهلكهم الله تعالى بعذاب شديد أليم لا يقوى العقل البسيط على تصوره .

5 – حجاج شعيب " عليه السّلام " مع قومه :

دعا شعيب " عليه السّلام " قومه إلى الإيمان والتّوحيد ومكارم الأخلاق التي من بينها الوفاء بالكيل والميزان؛ لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن وكانوا لا يوفونهما، ناهيا بذلك إياهم عن خيانة الناس في أموالهم والاحتيال عليهم وأكْل أموالهم بالباطل كما حثّهم على الأمانة وأن يتركوا الفساد في الأرض وألاّ يصُدوا عن سبيل الله مذكِّرا إيّاهم بنِعَم الله عليهم بأن كانوا قليلا فكثَّرهُم واعظا لهم بعاقبة من سبقهم، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ * ﴾ [20] لقد تحدّدت دعوَة شعيب " عليه السّلام " في هذه الآيات في النّقاط الآتية :

1 – عبادة الله تعالى وحده وعدم الإشراك به

2 – التّصريح بتقديم بيّنة لم يحدّد السّياق ما هي لا في سورة الاعراف ولا في سورة غيرها

3 – الأمر بإيفاء الكيل و الميزان

[19] - محمد عبد الصمد عبد الله ، خطاب الأنبياء في القرآن الكريم ، ص : 57 .

[20] - سورة الأعراف ، الآيات : من 85 ، حتى 93 .

4 – النّهي عن أكل حقوق الناس بالباطل وخيانة الأمانة

5 – النّهي عن الفساد في الأرض بعدم الكفّ عن مساوئ الأخلاق

6 – النّهي عن القُعود في الطرقات لتتبُّع عورات الناس، والتّعرُّض للمؤمنين الذين اتّبعوا شعيبًا ومحاولة صدّهم عن الحق

7 – تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم التي من بينها تكثيرهم بعد أن كانوا قلّة لا تُذكر.

8 – التّذكير بعاقبة السّابقين من قبلهم ومصارع المفسدين

لقد استدلّ شعيب عليه السّلام في هذه الآيات على دعوته ببيّنة لم تُذكر في السّورة كما لا نَجِد لها ذِكرا في سورة أخرى، يوضّح (الطّاهر بن عاشور) هذا الأمر بقوله: " يجوز أن تكون أُطلقت الآية لمعجزة أظهرها لقومه عرفوها و لم يذكرها القرآن كما قال بذلك المفسرون، والأظْهر عندي أن يكون المراد بالبيّنة حجّة أقامها على بطلان ما هم عليه من الشّرك وسوء الفعل، وعجزا عن مجادلته فيها فقامت عليهم الحجّة مثل المجادلة التي حكيت في سورة هود فتكون البيّنة أطلقت على ما يبيّن صدق الدعوى، لا على خُصوص خارق العادة أو أن يكون أراد بالبيّنة ما أشار إليه بقوله: "فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا " أي يكون أنذرهم بعذاب يحلّ بهم إن لم يؤمنوا "[21]وبالإضافة إلى دعوته الأساسيّة المتمثلة في " التّوحيد " هدفت دعوة شعيب عليه السّلام إلى تكريس المبادئ الآتية :

1 – حفظ مصالح النّاس وحفظ المعاملات الماليّة والاجتماعيّة .

2 – حفظ حريّة الرّأي و الاعتقاد – وهو مبدأ هامّ في أيِّ حجاج وقد تبنّاه القرآن الكريم في جميع استدلالاته- عندما نَهاهُم عن التّعرّض للناس عن الإيمان وتوعُّدِهم بالشّرِّ، وهو تعريض بحماقتهم وتعصّبهم إذ يحاوِلون حملَه ومن معه على مِلّتهم بالشِّدّة و الإكراه .

3 – وُجوب شكر الله تعالى على النعم التي حباهم بها و التي من بينها أن هيّأ لهم أسباب الكثرة وعزّز فيهم قوّة التّناسل وطول العمر، فصاروا بذلك أمّة كثيرة بعد أن كانوا قلّة قليلة، وفي سعيهم منع النّاس من الدّخول في دين الله حرصا منهم على تقليل حزبه كُفر وجحود بنعمته عليهم بعد أن كثّرهم.

والدّاعي الذي دعا شعيبا لتكريس هذه المبادئ في أهل مدين والمحاجّة في سبيل ذلك، هو ما شاع لديهم من خيانة الأمانة وغياب الثّقة في المعاملات – مع عدم حاجتهم لذلك فقد كانوا في خير وفير – نتيجة الخديعة ووقوع الغُبن ما يجُرُّ عدم استِتباب الأمن في الأمة والتّنافر وزيادة المخاصمات والمقاتلات، فشعيب عليه السّلام أنكر عليهم كل ذلك لهذه الأسباب الوخيمة على المجتمع ولقد جمعت دعوته " عليه السّلام بين "التّرغيب والتّرهيب" و" التّذكير بنعم الله تعالى الجَزِلة " و " التّذكير بمصارع الأمم السّابقة " و هي كلها من أساليب الحجاج الشائعة في القرآن الكريم عموما، بالإضافة إلى ذلك الإنكار الشّديد على سوء الأخلاق مما هو مخالف للعادات والأعراف الاجتماعية من حسن التّعامل

[21] - التحرير و التنوير ، ج 8 ، ص : 241 .

والأمانة وحسن الجوار والمعْشر وما يتبع ذلك من تعاقب الأمر والنهي في خطابه، فكانت دعوته زيادة على الطّابع العقدي ذات بعد أخلاقي وتربوي تهذيبي أيضا متبوعة بالحجج والأساليب التي تخدُم ذلك .

أما موقف قومه –" عليه السّلام "–، فكعادة المستكبرين من وُجهاء القوم وكبرائهم في الصّدِّ عن ذكر الله ومواجهة الحقّ بالباطل والمغالاة في ذلك بل والتّبجّح بالكفر والقوّة، هدّدوه ومن معه وخيّروه بين أمرين: إما الطّرد والنّفي من القرية، وإما الدّخول في ملّتهم. وبالطّبع كان موقف نبي الله " عليه السّلام " الرّفض المُطلق واستنكار ظلمهم المتمثّل في إجبار من اتّبعه على العودة إلى الكفر بعد الايمان فلا يصِحّ الافتراء على الله تعالى بعد معرفته والإيمان به لأنّ في هذا مدعاة لاستجلاب غضب الله تعالى ومقْتِه عليهم واستحقاقا لعذابه بعد ذلك، وما كان منه بعد ذلك إلا طلبُ النّصر والدعاء إلى ربه " رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ " فأهلكهم الله تعالى وأبادهم عن بكرة أبيهم بعذاب يوم الظلّة .

وبعد هذا القصّ، يقف السّياق في سورة الأعراف وقفة تعقِيبيّة مطوّلة يُبَيّن الله تعالى سنّته في التّعامل مع خلقه الذين كذبوا بعد أن أرسل لهم الرّسل وبيّن لهم الدّلائل المؤدية للتوحيد؛إذ يأخذهم أولا بالضراء والبأساء، لعلّ هذا يهُزّ قلوبهم الغافية فتستيقظ وتستجيب فإن لم تُهزّهم يَدُ البأس، وكّلَهم إلى الرّخاء وهو أشدّ فتنة من البأس حتى تلْتبِس عليهم سنّة الله ولا ينتبهوا لها، ثم يأخذهم بعد ذلك بفتنة وهم لا يشعرون. وبعد بيان هذه السنّة يهز قلوبهم بالخطر الذي يتهددهم في غفلاتهم فمن يدريهم أن قدر الله يتربص بهم ليُجري فيهم سنّته تلك ؟ أفلا تَهديهم مصارع الغابرين، وهم في ديارهم يسكنون ؟ [22]

6 – حجاج موسى " عليه السّلام " مع فرعون ومع قومه :

يستغرق هذا الجزء المساحة الأكبر في سورة الأعراف وفي القرآن الكريم كله، وقد جاء هذا التّفصيل الطويل في قصة موسى " عليه السّلام " لأنها تحْفَل بنماذج عديدة في تعامل الناس مع أنبيائهم وفي تقبُّلهم للعقيدة الصّحيحة فمنهم من استكبر وتجبّر وكفر رغم المعجزات والآيات الباهرات، كفرعون ومن اتبعه، ومنهم من آمن واتّبع الحقّ ثم بَدا له غير ذلك وبدأت مظاهر الانحراف تبدُوا عليه، وهذا النّموذج الثّاني حرَص على بيان نماذج من عدم الثّبات على الحقّ في أفصح مظاهره وعاقبة ذلك .

لقد كانت رحلةُ موسى عليه السّلام مع كِلا الفريقين طويلة وشاقّة وصعبة، تميّزت بالعَنَتِ الشّديد من الفريقين رغم حرصه " عليه السّلام " على دعوتهم للثّبات على الحقّ وهم يأبون.

ونظرا لهذا التّفصيل الطّويل ارتأينا تقسيم هذا الجزء إلى قسمين : القسم الأول هو حجاج موسى عليه السّلام مع فرعون والثاني مع بني إسرائيل ؛ ذلك لأنّ كلّ نموذج منهما يختلف عن الآخر .

أ – حجاج موسى عليه السلام مع فرعون والسّحرة :

[22] - ينظر : في ظلال القرآن ، ص : 1250 .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ *وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ *يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ *وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ * ﴾[23] لقد جسّد حجاج سيّدنا موسى " عليه السّلام " نموذجا من أضخم نماذج صراع الحقّ مع الباطل، نظرا للتّعنُّت الشّديد من قبل هذا العدوّ المجاهر بالعداوة والمدعي للربوبية. ولعلّ هذا ما جعل قصّة موسى عليه السّلام وفرعون هي الأكثر دورانا في سور القرآن العزيز. وأمام هذا الطّاغية حرص موسى " عليه السّلام " على عرض رسالته وإيصالها له بعد أن مدّه الله تعالى بالآيات و الحُجج الباهرات لتكون له سندا في دعوته، وعليه فالآيات في السورة تبيّن طريقة عرض موسى عليه السّلام لرسالته ومواجهتة فرعونَ بمطلبين أساسيين :

1 – شرح موسى " عليه السّلام " وظيفته وبيّن أنّه رسول من ربّ العالمين، ويترتّب على هذا: الدّعوة إلى عبادة الله وحده وعدم الشّرك به أو ادّعاء الرُّبوبيّة لغيره، كما علّل ذلك بأنه قد جاءهم ببيّنة هي بمثابة الدّليل على ما يقول.

وبالطّبع فإنّ في هذا نفيٌ للرُّبوبيّة المطلقة التي يدّعيها فرعون، وهي مواجهة صريحة وجريئة بحقيقة العقيدة لن يتقبّلها طاغية مثل فرعون خاصّة وأنّ هذه المواجهة قد حملت شيئا من عنصر المفاجأة والدّهشة، ففي ظل حاكم جَائرٍ كفرعون لن يتجرّأ أحد على هذا بل ويُستبعَد التّفكير فيه

[23] - سورة الأعراف ، الآيات ، من 103 ، إلى 137 .

من الأساس ولن يتوقّعه هذا الطّاغية من أحد نظرا للذّلّ الكبير الذي كان مسلّطا على بني إسرائيل، وبالتّالي فإن هذا الأمر من شأنه إحداث هزّة نفسيّة شديدة في نفس فرعون كان لها بالغ الأثر في زرع الخوف والشّكّ وهزّ ثقتِه في نفسه رغم ما أبداه من مكابرة وهو من هو كما يعتقد، ويتعلّق تأثير هذه المفاجأة بجهتين :

الأولى : شجاعة هذا الرجل الذي تربّى فيهم وجُرأته وعدم الخوف من مواجهته .

الثانية : وهي مترتبة على الأولى، فتَجرُّأُ موسى على فرعون من شأنه أن يكون قُدوة ويُؤلِّب عليه بني إسرائيل فيَحذُون حَذوَه ويتمرّدون عليه، وبالتّالي فقدان السّيطرة عليهم؛ ولقد كان هذا العنصر نقطة إيجابيّة لصالح موسى " عليه السّلام " لما أحدثه من فزع ومخاوف في نفس فرعون .

2 – وفي موقف جريء آخر طلب موسى من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، وهو بذلك يطلب منهم أن يحرِّرهم من الرِّقّ الذي كانوا فيه بمصر وأن يخرجوا معه إلى الأرض المقدسّة لعبادة الله وحده، لأنّ خروجهم كان متوقِّفا على أمر فرعون، وإرسال بني إسرائيل بالنّسبة لفرعون – هو في الحقيقة – معناه زوال دولته وذهاب هيبته .

من الواضح من خلال الآيات أن فرعون الطّاغية كذّبَ بما جاء به موسى، ولذلك فقد طلب منه على سبيل الاستهزاء والتحقير" قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ "، فعرض عليه موسى حجّته المتمثّلة في معجزتين أمدّه الله بهما ليُدلِّل على صدقه وصدق رسالته وهما: ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، وأخرج يده فإذا هي "بيضاء للناظرين ".

وكان من المفروض على فرعون أن يتأمّل في حُجج خصمه ويحاول على الأقلّ الاعتراض عليها أو إظهار نقصها وإلا فقُبول ما ينْجُم عنها من نتائج أُلزم بها، لكنّه كان يعمد دائما إلى المناورة والانصراف والهروب من سياق الحجاج والالتجاء إلى وسائل لا تنسجم وأسلوب المناظرة والجدال الرّصين فعِوضَ أن يتحسّس الدّليل ويناقشه عمد إلى صاحبه يرميه بالجنون تارة و بالسِّحر تارة أخرى . "[24] لقد اتَّهم فرعون و ملأه موسى " عليه السّلام " بأنّه يريد أن يخرجهم من أرضهم ويحتلّهم وجعلوا يتشاورون بينهم ماذا يفعلون ؟ فخلصوا إلى إرجائه وأخاه واستدعاء كبار السّحرة من المُدن لجَرّ موسى إلى المواجهة الكبرى والحاسمة ومنافسة براعة السّحرة وهم قوم اشتَهروا بالسِّحر و الشّعوذة، وهدفهم من ذلك هو التّصغير من شأن معجزة موسى عليه السّلام والإطاحة بدعوته، ولقد استجاب موسى " عليه السّلام" لمطْلبِهم وقَبِل بالمواجهة و لم يُبدِ خوفاً أو تردُّدًا من جموع السّحرة الذين أتى بهم فرعون بل بدا واثِقا كلّ الثِّقة وجعلهم يتقدّمونه بعد أن خَيّره في ذلك يقول (الطّاهر بن عاشور) : " ... ولكنّهم خيّرُوه في التّقدم أو يتقدموا فاختار أن يتقدموا لحكمة إلهية تزيد المعجزة ظهورا، ولأنّ في تقديمه إياهم إبلاغا في إقامة الحجّة عليهم ولعلّ الله ألقى في نفسه ذلك، وفي هذا دليل على جواز الابتداء بتقرير الشُّبهة للذي يثِق بأنّه سيدفعها ." [25] لينقلب السِّحر على السَّاحر بعد المواجهة ويدرك هؤلاء السّحرة أنّ الذي جاء به موسى عليه السّلام هو الحقّ وأن ما رأوه فعلا بُرهان ساطع ولا يمكن أن يكون إلاّ معجزةً حقيقيّة، وكانت نتيجة هذا الإدراك أن خَرُّوا ساجدين وكانوا أوّل المؤمنين به بعد أن تبَيَّن لهم الحقّ وعظمةُ ما جاء به موسى "

[24] - ينظر : محمد التومي ، الجدل في القرآن الكريم ، ص : 80 .

[25] - التحرير و التنوير ، ج 9 ، ص : 48 .

عليه السّلام " متزّهِين إيَّاه عن السِّحر وتأكّدَت بذلك غلبتُه " عليه السّلام " بالقول وبالفعل، وأغلَقُوا بذلك كل سُبُل المراوغة التي يمكن أن يلجأ إليها فرعون، رغم الثّورة والهيجان الشديد اللذان أبداهما لترهيبهم واتّهامهم بالمكر والتّآمر مع موسى لإخراج بني إسرائيل من مصر والإطاحة بِمُلكه ثمّ تهديدِه إياهم بالصّلب وقَطْعِ أيديهم وَأرجُلِهم من خِلاف والعذاب الشّديد، فما كان منهم إلا الثّبات على إيمانهم والصّبر على العذاب مستعينين بالله تعالى : " قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ " .

أمّا الملأ من أتباعِ الطّاغية فقد رَاحُوا يُؤلِّبُونَه ويُحرِّضونه على موسى ومن اتبعه خِشية على مصلحتهم التي تتبع مصلحة فرعون إذا ما استمر مُلكه الذي تُهدِّدُه رسالة موسى " عليه السّلام " وفي المُقابِل راح موسى يواسي قومه ويحثُّهم على الصّبر والاستعانة بالله ويُقوِّي عزيمتهم ويعزِّز يقينهم من أنّ النّصر آتٍ لا محالة من الله تعالى وأنّ العاقبة للمتّقين .

والمُلاحظ من كلّ هذا شِدَّة التّعَنُّتِ لدى فرعون وملئه فلقد ابْتُلوا بِشتّى أصناف البَلايَا والكوارث كما تُبَيِّن الآيات في السّورة من جفاف ونقصٍ من الثّمرات والطُّوفان والجراد والقُمَّل لكي يؤمنوا لكن ما زادهم ذلك إلا عنادا وتَطَيُّرا وتَيْئيسًا لموسى من إيمانهم وإصرارٍ منهم بأنّه ساحر عليم، حيث قالوا : " وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ " والغريبُ هو إصرارهم هذا في كل مرّة أن ما جاء به موسى "عليه السّلام " هو السِّحر، فانتقم الله منهم بعد أن أرجاهم طويلا وأهلكهم بالغرق وأَوْرث الأرض لبني إسرائيل الذين استُضعِفوا جَزاءًا لهم بما صبروا، ودمّر الله ما كان يصنع فرعون وقومُه تدميرا .

لقد تبنى سيدنا موسى " عليه السّلام " في مواجهة فرعون استراتيجيّة حجاجيّة مثاليّة في الدّعوة إلى الله تعالى وذلك من خلال :

1 – المُلاينة في القول والتَّحبُّبِ إلى الخصم من خلال مناداتِه بأفضل أسمائه وأحبِّها إليه " يا فرعون " هذا اللّقب الذي يدلّ على السّلطة والاحترام، وهذه الملاطفة والملاينة في القول هي في حدِّ ذاتها آليّة من آليات التقرُّب من الخصم، إذ تُساعد في ترغيبه لقبول القضيّة المعروضة، يقول(الطّاهر بن عاشور) : " والظّاهر أنّ خطاب موسى فرعون بقوله " يا فرعون " خطاب إكرامٍ لأنّه ناداهُ بالاسم الدّالِّ على الملك والسُّلطان بحسب مُتَعَارَف أمّتِه فليس هو بترفُّع عليه لأنّ الله تعالى قال له ولهارون " فقولا له قولا ليِّنا "[26]

2 – اعتماد الأدلّة المقنعة التي تُثبِت الدّعوة والحُجّة الفعلية؛ وذلك من خلال تأكيده أوّلا على أنّه رسول من ربِّ العالمين حقيق عليه ألاّ يقول على الله إلا الحقّ وتدعيمِه لهذا القول ثانيا بِبَيِّنة من الله تعالى تُوضِّح صدق نُبوّته ومضمون رسالته.

3 – الثّقة بما آ تاه الله من حُجج بَيّنة من خلال تقديم الإلقاء للسحرة .

وفي المقابل اعتمد فرعون في مواجهة الدّعوة استراتيجية تعتمد على :

1 – طلب البيّنة والدليل على صدق الدعوة

[26]- التحرير و التنوير ، ج 9 ، ص : 37 .

2 – السّخرية وتحقير الخصْم والانتِقاص من شأنه؛ فَبَدل التّفكير ملِيًّا في هذه الدّعوة إلاّ أنّ تعَجرُفَهُ وتكبُّره منَعاه من ذلك بل وجعلاه يتجرَّأ على اتِّهام موسى بالكذب .

3 – المغالطة والإنكار والتّحدِّي ؛ بجمع حشُود السّحرة وإجبار موسى على مناظرة السَّحرة ظنّا منه أن ما جاء به السِّحر وأنّ كبار سحرتِه سيهزِمُونه لا محالة، ولجأ إلى المغالطة بعد أن أيَّد الله نبيَّه بالنَّصر فَبَدل أن يتنازل عن دعواه واتهاماته ويتقبَّل النتيجة إلا أنّه أصرّ على مُغالطة القوم ومحاولة استِجلاب رأي الجمهور إلى ما يريده هو رغم يقينه بصحَّة ما رآه ذلك أنّ المغالطة مبنيّة أساسا على أن يكون ما هو مصرح به أو المنطوق به غير ما هو رأيُ صاحبه الحقيقي الذي يُبطِنُه، على الرّغم من الاضطراب الواضح الذي ظهر عليه والذي تَبَدّى تارة في اتّهامه بأنّه يريد إخراجهم من أرضهم وتارة في التّهديد والوعيد والتّحريض على موسى وتارة في طلب رأي عِلِيَّةِ القوم فيما يجب فِعلُه مع نبي الله موسى " عليه السّلام " .

4 – الإغراء : وذلك بإجزال العطاء للسّحرة ووعدهم بجَعلِهم من المقرَّبين تحريضا لهم وشحذا لِهمَّتِهم حتى يقدِّموا أفضل ما لديهم وينتصروا على موسى و يبطلوا حجّته .

ومن كلّ ما سبق نخلُص إلى أنه لما كان الأنبياء فعلا أصحابُ دعوة حقيقية ظهرت في أخلاقهم واتصفوا بصفات النصح والأمانة واللّين فقد استندوا في خطاباتهم إلى الحُجج العقليّة والبراهين المنطقية من أجل أن تثمر جهودهم في دعوتهم إلى الله .

أما الأقوام فإن موقفهم كان الرّفض والإعراض واتّخذوا الاستفهام وسيلة للإنكار والتّكذيب والتّسفيه والاستهزاء والسّخرية وقد طغوا وعاندوا وأعرضوا وكذّبوا وأنكروا بما جاء به الأنبياء وخالف ما وجدوا عليه آباءهم ولا ترتضيه أهواؤهم وأنفسهم . [27]

ب – حجاج موسى " عليه السّلام " مع بني إسرائيل :

يختلف هذا الجزء من حجاج موسى مع قومه عن بقية الأجزاء الأخرى من حجاج الأنبياء مع أقوامهم ذلك أنّ هذا الأخير كان حِجاجا بعد مواجهة بالكُفر وتعنُّت واستمرار فيه، لكن الأوّل أي حجاج موسى مع قومه كان حِجاجا بعد إيمان ثم كفر فمِيزَتُه التّقلُّب وعدم الثّبات.

فبعد أن نجّاهم الله تعالى من فرعون وملئه وأنجاهم من حياة الذُّلِّ والعبوديّة التي كانوا يحيونها، رفضوا حياة الطمأنينة والحريّة والكرامة وهَرعُوا إلى ما دونها والظّاهِر أنّهم ألِفوا حياة الذُّل والعبوديّة فصاروا لا يرضون بغيرها، ولذلك فإنّهم نسُوا فَضْل الله سبحانه وتعالى عليهم ومِنّتَهُ العظيمة عليهم التي تستوجب الشّكر والطّاعة لربّ العباد قال تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * ﴾ [28] لقد تجرّأت نفُوسهم الشّقيّة على طلب الشِّرك من موسى " عليه السّلام " وأن يجعل لهم إلها صنما اقتِداء بالقوم الذين

[27] - ينظر حسين عبد الله صالح الموساوي ، الأعراف دراسة نصية ، رسالة ماجستير ، كلية التربية ، قسم اللغة العربية ، جامعة الموصل ، 1423 ه – 2002 م ، ص: 43 .

[28] - سورة الأعراف ، الآيات من 138 ، إلى 141 .

يعبُدون الأصنام، وبالطبع فقد أنكر عليهم موسى " عليه السّلام " ذلك كل الإنكار وردّ عليهم بشدّة مُذكِّرا إياهم بمَنِّ الله تعالى عليهم وتفضيلهم الذي خصّهم به على العالمين وبفضله أنجاهم من الذّل الذي كان مسلّطا عليهم من فرعون وأصناف الرِّقِّ والعذاب والتّنكيل وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم لامتهانهن، وفي هذا تعريض من موسى بحماقة بني إسرائيل ؛ لأنهم أرادوا استبدال الذي هو أدني بالذي هو خير وهو منتهى الجُحود ونكران النِّعَم التي تستوجب الشكر والطّاعة .

ورغم هذا التّحذير من مغبّة الشّرك بالله وتذْكِيرهم بنعم الله تعالى عليهم إلا أنّ القوم استغلُّوا غياب (موسى عليه السّلام) وذهابه لميقات ربه واستضعفوا خليفته عليهم (هارون عليه السّلام)، وارتكبوا أفْضَع جُرْمٍ بحقِّ أنفسهم واتّخذوا من حُلِيِّهم عِجْلا يعبدونه، قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ *﴾[29]. ولّما رأوا أنّه لا يرُد عليهم وتيَقّنوا من أنّه لا ينفع ولا يضُرّ أدرَكوا ضلالتهم وندِموا على صنيعهم وعادوا يرجُون رحمة ربّهم .

ولما عاد موسى من الميقات، غضب من ذلك أشدّ الغضب وألقى الألواح وجعل يُؤنِّب أخاه هارون ليعود ويستغفر لنفسه ولأخيه .وبعد هذه الحادثة اختار موسى " عليه السّلام " من قومه سبعين رجلا من أصْفيائهم لميقات الله من أجل التّوبة وطلب الغُفران فإذا بهم مجَددا يتفنّنون في التّقلُّب ويميلون عن الهدى ويطالبون موسى " عليه السّلام " برؤية الله سبحانه وتعالى جهرة قبل أن يتوبوا ويؤمنوا به، فأهلكهم الله تعالى وصُعِقوا بالرّجفة .

أمّا موسى " عليه السّلام " فتوجّه إلى ربّه متذلِّلا مُستغفرا معلنا خضوعه الكامل لله تعالى واعترافه بقدرته، قال تعالى : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ*﴾ [30]لقد كانت ميزة إيمان بني إسرائيل هي التّقلُّب وعدم الثّبات على الحقّ وهو النّموذج نفسه الذي يقارب النماذج التي سِيقت في السّورة منذ البداية من إبليس لعنه الله وأخزاه، إلى أصحاب الأعراف فلا هم بالمؤمنين ولا هم بالكافرين وحسناتهم وسيئاتهم سِيّان لذلك حبسوا على السور ينتظرون حكم الله فيهم .

[29] - سورة الأعراف ، الآيات ، من 148 ، إلى 154 .

[30] - نفسها ، الآيتان ، 155 ، 156 .

كما عرفت هذه المرحلة في حجاج موسى عليه السّلام مع قومه بانفعاله الشّديد واستخدامه لأسلوب الشِّدَّة والتّرهيب وطغى عليه الغضب كما اعتمد بعد ذلك على النُّصح والإرشاد والعودة إلى اللِّيونة وحذَّر من مغبَّة الشِّرك بالله وعاقبة ذلك، ورغم اعترافهم بالذنب والنّدم على فعلتهم إلاّ أنّهم عادوا ليطلبوا ما هو مستحيل ويتجرّؤوا على الله فأهلكهم، وما كان من موسى "عليه السّلام " أمام موقفهم المـــــــزْرِي إلاّ الابتهال إلى ربّه والاستجارة به من عذابه. لقد كَثُرت التِوَاءاتُ بني إسرائيل و اشتدَّ انحرافهم حتى أتاهم أمر الله تعالى وحقّ فيهم عقابه، وقد عانى معهم (موسى عليه السّلام) معاناة شديدة توزّع ذِكرُها على مدى سُورٍ كثيرة في القرآن الكريم وَصفت أحداثا عديدة، جرّاء نُكوصهم وجُبنهم وتقلُّبهم بل وتمادوا في التّقلُّب والضَّلال .

الخلاصة:

وعلى كلّ حال لقد تَبَدّى لنا من خلال كل تلك القَصَص الجوُّ العامّ للسّورة الذي يدور حول عاقبة اتّباع الهدى وحول عاقبة اتّباع الضلال والتّقلّب بين الأمرين، حاملة البشرى بقرب النّصر لمن صبر واتّبع سبيل الحقّ ودعوة الأنبياء والمرسلين، وسلوى للرسول الكريم(صلى الله عليه و سلّم)وتسْلية له فلا بُدّ من اليُسر بعد العسر ومن الفرج بعد الضّيق، كلّ ذلك ضمن استراتيجية حجاجية قويّة ارتكزت على العقل والمنطق والمواجهة بالأدلّة والبراهين، وحرية وتبادل الرأي والرد المفحم على الخصوم لدفع وردّ كلّ الشبّهات بالإضافة لأساليب الاستمالة العاطفية و اللّطف و اللّين، و هي كلها أو أغلبها استراتيجيات و أساليب حجاجية شائعة في القرآن الكريم ، و أثبتت كفاءتها و اعتمدت في الدراسات الحجاجية المعاصرة سواء البلاغية مثل التصور الذي قدمه كل من بريلمان و تيتكاه ،أو لغوية كما هي الحال عند ديكرو و أنسكومبر أو تستند إلى أفعال الأفراد و تصرفاتهم المباغتة والمرتبطة بالمنطق والذكاء وسرعة البديهة و الاستنتاج .

المراجع :

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

1- ابن كثير الدمشقي الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم ، وضح حواشيه و علق عليه : محمد حسين شمس الدين، ج : 3 ، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت – لبنان ، 1419 ه – 1998 م.

2 – حسين عبد الله صالح الموساوي، الأعراف دراسة نصية، رسالة ماجستير، كلية التربية، قسم اللغة العربية، جامعة الموصل، 1423 ه – 2002 م .

3 – سيد قطب، في ظلال القرآن، مج: (5) ،ج: (24)، دار الشروق، ط 32، القاهرة، بيروت، 1423 ه– 2003م.

4 – عبد الصمد عبد الله محمد ، خطاب الأنبياء في القرآن الكريم خصائصه التركيبية و صوره البيانية ، أطروحة دكتوراه ، كلية اللغة العربية ، فرع الأدب ، المملكة العربية السعودية ، 1415 ه – 1995 م.

5 – محمد التومي ، الجدل في القرآن الكريم، فعاليته في بناء العقلية الإسلامية، شركة الشهاب، (د.ط) ، الجزائر،(د.ت).

6 – محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير و التنوير،ج : 8،9، الدار التونسية للنشر، (د. ط) ، تونس ، 1984م.

7 – محمود السيد حسن مصطفى ، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ط 1 ، الإسكندرية ، 1981 م.

Ibtissam .hadj@jmail.com